القمر يعرف ليلة تمامه

من خلف أسوار السجن

محمد العجمي

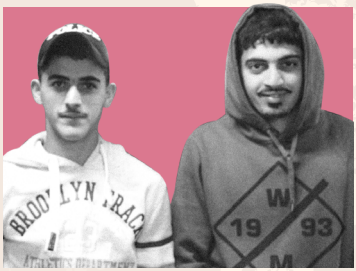

القمر يعرف ليلة تمامه

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى سيدي ومولاي صاحب العصر والزمان.

إلى الصابرة المحتسبة في جنب الله من تحنى الرؤوس أمام شموخها وفدائها، إلى أمّ الشهداء الأحبة مصطفى ومحمد، مَن سكنوا الفؤاد واستقروا في عمق الضمير.

بدافعِ الحنين كتبت هذه الأسطر القصيرة قافلةَ نجاةٍ في طوفان الحياة .إنها لا توفي الشهيد العزٍيز مصطفى الحق والله، بل ولا تقاسُ بميزان الوفاء ولو ازدادت أطنانا.

واستميحكم العذر إن غابت بعض الأحداث أو وردت بشكلٍ مغاير فلأنه حصيلة أسوار السجن الضيقِ والتشديد ... أبلغيهم منّا السّلام الحار، كحرارة جريانهم في شريان القلب، أبلغيهم ألاّ ينسوا صاحب الزمان من الدعاء بالتأييد والتسديد، أبلغيهم أن لا ينسوا شيخنا القائد من الدعاء بالصحة والرفعة، أبلغيهم أن لا ينسونا بالدعاء من الهداية والتوفيق. السلام على أطيافهم التي سكنت الوجدان وعشنا بها نسيان النسيان السلام على القمر الذي يعرفُ ليلة تمامه.

محمد العجمي
سجن جو المركزي

(القاهرون)

تشهقُ الحيرةُ دهشةً .. فهذا حديثٌ لا يُعقل بين اثنين مسافة الذي بينهما فرسخٌ وفرسخ .. لا بَل بينهما برزخٌ فا يجتمعان. أيستوي الحبرُ والدم؟! أممكنٌ أن أفي الشّهيدَ بقلمٍ!؟

ترتجفُ الحروفُ خوفا، وتكِلّ الأقلام وصفا .. كيفَ لا وماهوَ إلّا وصفُ بستانٍ مِن لدن ضريرٍ أعمى؟! ووصفُ المادَّةِ لِما فوق المادَّة!

يا لعقولنا القاصرة .. نحن الذينَ تشبَّعت تصاويرنا انغماساً بالدنيا، فهؤلاء الشهداء تحوطهم هالة من القداسة والطهر كطوقٍ أحكم إغلاقه، يَحوْل بيننا نحنُ الدنيويين وبينهم .. وسنبقى ننظر مَن بعيد ونتحدث حديث المساكين التائهين.

لحظة من التمعن

يا للعجب من هذا الأمر! تعالوا وانظروا ما لهذا المشهد مِن غرابة وهيبة! الفداء، الشجاعة ،العزم ،الصبر، الإرادة .. جميعهم هنا، إنّهم يجلسون مُنحنينَ أمام فتىً صغيرٍ تعظيماً وإجلالاً لقامته الشامخة. فمن أيّ طراز هذا القمري؟ وكيف وصل لهذه المرتبة؟ قسماتٌ وجهه تشبه الورد في لطافته، جسدٌ نحيل كالغصن الطريّ ولحيةٌ لم يأن وقت اكتمالها .. كل ذلك ينذر بأنه لم يعمر طويلاً في هذه الدنيا، فكيف بلغ ما بلغ من هيبة ووقار وعزة و افتخار؟! جمعٌ مِن تساؤلات كالغيوم المتراكمة الحائرةً .. تتبدّدُ عندَ الطّلوع شذراتٍ من وميضٍ حياته لتخرجنا من بحر التّيه نحو الحقيقة الراسية، واقعاً .. من كان

تائهاً في متاهات الحياة ويبحث عن الاهتداء إلى السبيل فليتبع هذا القبس الوضاء .

حمدان

مصطفى حمدان ذاك الفتى ذو السّبعة عشرَ ربيعا، عاش حيناً بعدما توفي والدهُ وهو صغير السّن، فازداد تعلّقاً بوالدته التي كان يرى فيها الأم والأب. فهو الابن البارّ بها، المؤثْر رضاها على رضاه، الرّاعي لحقّها. عندما يراها يهرع نحوها حانياً جناحيه ورأسه يسبق صوته انخفاضا تأدباً ومهابة. يُسمِعُها أطيَب الكلام وأعذبه يُخاطِبها ووجنتاه تتوردان : «أماه، حبك بعمق البحر. بحجم السماء».

حمدان، عُرِفَ بينَ أصدقاءه بخجله المفرط ومحياه البشوش، لا تنطق شفَتاه بفحش و لَعن، أوغيبة وشتم، متعلِّقٌ بصاحب الزَّمان عجل الله تعالى فَرَجه الشريفِ حتى النّخاع، وانتظَاره له عليهِ السَّلام قد مَلء كلّ كيانه «**المُمَهدون المنتظرون**» اسم جهادهِ وشعارهُ في كلّ محفل، ولا يعلمُ هَل دارت به الأرضُ تسعة عشرهَ عاما أم دارت حول روحه تتعلّمُ منه البقاءَ والارتقاء، فحمدان كان مختلفاً عن الكثيرين ممّن في عُمْره، يعيشُ في عالَم خاص، ذلك العالم الذي نسجه بإحكام، عالَم كان أهل البيتً (عليهم السلام) بتعاليمهم السّامية يضعون لبناته الأساس، لبنات تشعُ جوهراً يطرقُ أبواب الكمال، جوهرةٌ برّاقة تعيش بين أفكاره وجوانحه، تُحرِّك وجدانه وتدفعه حثيثاً نحو نور الله، إنها جوهرةٌ تبعث على الحياة والخلود ... إنها جوهرةُ الشهادة .

سحر الشهادة

للشَّهادَة سحرُها الخاص ورونقها الفريد، فأصاب سحرها وجدانه، واشتعلت نَيرانِ الاشتياق في كل عروقه وأغصانِه، حَتّى باتَ يطلبها وتطلِبه .. عالماً أنَّ فيها تجارة لا كساد فيها.

أمي لديك المفتاح ..

مصطفى يحزمُ الحقائب للسفر مع أمّه وأخيه الشهيد محمد .. والوجهة مرقد الحوراء زينب (عليها السلام) المرقد الذي كان يجد فيه رفَاهَ نفسه ويبث حزنه فيه.

حلّقَت به قافلة الشّوق حتى وصل، وما إنْ لامَسَت قدماه تراب أرضها حتى عكف دعاءً وبكاءً صحنها الطاهر، يحرص أنْ يكون في مقامها قبل كل فريضة، مالئاً أنفاسه بالآيات والذِّكر، ... إلى أن أتي يوم الانصراف والعودة للديار، وقفَ مع والدته وأخيه محمد تحت القبّة السّامية لسلام الَوداع والدعاء الأخير، فرغت الأم من الدّعاء وهَمّت بالمغادرة، استوقفاها الابنان لطلب: أمّاه نريدك أن تدعي لنا. أجابَت بدهشه: وهل أنساكم من الدعاء! لم أنْسكم. لا .. بَل نريدك أن تدعي لنا بالشّهادة! تجمَّدَتْ في مكانها: كيف تريدون مِن أُمٍّ أن تدْعو لابنَيْها بهذا الدعاء؟ إنَّه أمرٌ صعبْ .. لنَنصرف.

وقفا قِبالها بخاطرٍ منكسر، تجمَّدَت أقدامهما في مكانهما وهُما يُلحّان .. أماه، لن ننصَرف اليوم قبل أن تدعي لنا بالشهادة، فحاصرها الأصْغر ولم ينفك عنها حتّى رفعَت يدها وابتهلت: يا إلهي بالحوراء زينب (عليها السلام) اللّهم ما أراده صغيراي فاكتُب لهما. انصرفوا، وقلب الأخوين ينطربُ فرحا، وكيان وجودهم يغمره السّعد.

أيّ مَسّ أصابَ ذلك العقل حتى باتَ لا يرى للشهادة بدلا .. إنّه ليس مس من صنف الجنون، هوَ مسّ مَن طرَقَ الفكر متسائلا: إذا كان الموت واقعاً حتماً لا محالة، والخيارُ بينَ (مَوْتٍ وإذلال، أو مُقارعَة طاغٍ في ميدان قتال)لتكن هي الثانية (شهادة في سَبيل الله) فهي ما يريدُ ويطلب. يا لنبل الطّالِب، وسموّ الطّلَب، وجمال المطلوب .

في ثنايا الميدان

إنهـا سـاحات الثـورة تشـهد التهابـاً مسـتعرا، جيـوشٌ لئيمـةٌ لا تفـارق المشـهد، في قبالهـا تقـف قلّـةٌ قليلـةٌ مجاهـدة لا تفتـأ عـن النّضـال اتصـلَ ليلهـا بنهارهـا.

كان هنـاك في الصـف الأمامـي للثلـة المُضحّيَـة، أبى إلاّ أنْ يكـونَ صاحـبَ موقـف، موقـفٌ ينسـجم مـع غايتـه، كان هنـاك يرمـي بقبضتـهِ زبانيـة الجحيـم، قبضـةٌ تملؤهـا نـيران الغضـب المتوقـدة مـن روح الإبـاء، ترافقهـا صيحـات الحماسـة التـي تبعـث في رفاقـه وهـج الصمـود. شـامخٌ كمأذنـةٍ تصـدحُ بالفـداء والتلبيـة .. نعـم ، هـو صاحـب همّـة عاليَـة تصاغـرَتْ عندهـا شـموخ الجبـال، وتضاءلـت أمامهـا قمـمٌ مِـن التاريـخ.

فـي أحـدى المـرات وبينـما كان مصطفـى ينفـض أثـر الكـرّ والفـرّ بـادره أحـد أصحابـه بالسـؤال: مـا الـذي تتوقعـون أن تصلـون إليـه ؟ فعاجلـه بلسـان حاسـم (نحـن سـنحررُ البحريـن) . كان القابـض على رايـة التحرير، تحريـر المسـتضعفين الأخيـار مـن سـلطة شـياطين الأرض الأشرار .. ملؤه الإرادة، ليزيـح فلـول الظّلـم الجاثمـة علـى صـدور المقهوريـن.

بستان الشهادة

مَحطّـاتٌ ومنعطفـاتٌ في درب الثّـورة، تحتـاج لمـن يقـف فيهـا وقفـةَ مقـاوم ليرمـي بسـهام الرفـض مُخرسـاً فـم الظـالم، وفي خضـمّ المسير .. في ذَلـك الـدّرب الشـائك الطويـل .. انعطـف اليائسـون واستسـلم المرجفـون ليشـمخ في قبالهـم المضحـونٍ، وعنـد كل امتحـانٍ وابتـلاء تجـده هنـاك مقدمـاً صدّقـه درعـا، مسـتلاً عزمـه، تجـدهُ في كلٍ جبهـةٍ رغـم تكالـب همومـه. وأيّ هـم يعـتري صـدره الصغـير!؟ نعـم كان يعيـشُ بينهـم بـل كان واحـداً منهـم .. إنـه هنـاك يحمـل رسـائل الكرامـة.

حتـى مـدّ الظلـم باعـه، ومـزّق قناعـه اسـتماتةً في تماديـه وطغيانـه، خاصـةً هـذه المـرة بمراميـه الطائشـة .. رمـز الطائفـة .. أمثـلُ قاسـم؟!

يـا لِوضاعَـة الحُكم. فـما إنْ ترامـى النبأ عـلى مسـمعه هـب نـاصراً آخـذاً مقعـده الأمامـي في صفـوف المرابطـين، لم يتعـذر بالمعاذيـر بـل تيقّـن بالمقاديـر التـي حاكتهـا خيـوط الغيـب مـن أجـل لُقيـاهُ ومُبْتغـاه فبـدأ رحلـة الرّبـاط المقـدس .. هنـاك، قـد غـاصَ مـن قمَّـة رأسـه إلى أخمَـص قدميـه في بسـتان الانتظـار مرتقبـاً الثـمار، فالعطَـاء في سـاحة الفـداء لابـد أن يسـمو ويثمـرَ سـعَادة ..، سـعادة أبديـة.

رِباطُـه الـذي لم يكُـن جلـوسٌ بـلا عمـل، وإنمـا جهـادٌ مسـتميت. تزكيَـةٌ وتحصـين، تزكيـة نَفـس وتحصـينُ ثـورة .. مواصـلاً جهاديـن بمهنديـن، مُهنـدٌ شـاهرٌ يصـدّ بـه أعدائـه، ومهنـدٌ ضامِـر يُـردي بـه أهوائـه.

رأى في ذلـك الميـدان موقعـاً لتهذيـب النفـس وسُـلَّمَ العـروج لأعـلى البـروج، فـراح يحـثّ كل أهلـه وأحبّائـه وأصدقائـه، وكان لـه الفضـل بعـد اللـه تعـالى بمشـاركة أخيـه الشـهيد محمـد حمـدان الـذي أستشـهد هناك أيضا.

لا عذر لمن تخلّف ..

القـدم التـي غُرسـت في الميـدان، فاجئهـا طـارئ.. الأم تدعـوه للسَّـفَر وذلـكَ لمرقـد الحـوراء زينـب (عليهـا السـلام) ..فاضطـرب، اسـتدركَ ثـمَ أجابهـا بلُطف:أمـاه اعذرينـي في هـذا الوقـت والظَّـرف لا أسـتطيع فـلا تلحّـي عـليّ فأنـا لا أسـتطيع أن أرد لـكِ طلـب.

وقـفَ رفاقـه لإقناعـه: لا تدعهـا لوحدهـا، اذهـب و ادعُ هنـاكَ (للشَّـيْخ) بالحِفـظ ولنـا بالثّبـات. بعـد إلحـاح شـديد وإصرار .. اتّخـذ القـرار مُيَمِـماً نحـو الحـوراء (عليهـا السـلام) والقلـقُ يخفـقُ بـين ضلوعـه: وبعـدَ أن انـصرف؟ مـاذا لـو وقـع المحظـور؟

مـا إنْ وصلَ إلى تلـكَ البقـاع حتّـى داوم عـلى الاتصـال بالمرابطـين وذلـك للاطمئنـان، ..هـل سـماحة الشـيخ بخـير؟ هـل الأوضـاع عـلى مـا يـرام.. هـل مِـن جديـد يلـوح في الأفـق..، سـأعود قريبـاً إن شـاء اللـه.

تربَّـع وسـط صحـن الحـرم مناجيـاً مبتهـلا، متمتـماً راجيـاً داعيـاً بثبـات

الصدور بدعاء أهل الثغور «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَ آلِهِ ، وَ أَنْسِهِمْ عِنْدَ لِقَائِهِمُ الْعَدُوَّ ذِكْرَ دُنْيَاهُمُ الْخَدَّاعَةِ الْغَرُور» .

توالت الأيام وعاد، وما أن لمسَت قَدماه مدرج المطار، كانت المحطة المباشرة ميدان الفداء. اخترقَ الحصار وبنوره القمري الميدانُ استنار، وقفَ وقفةَ جندي ويمم وجهه شطر منزل الفقيه الشّجاع عيسى مُوجّهاً الخطاب «سيدي وقائدي، فدتك الروحُ والأهل والأوطان، يا بلسم قلوبنا إذا ما عصفت بنا الأحزان، ما غفلنا عن وصالك برهة .. أنتَ من نهوى، أقحمنا سلمكَ إنْ شئتَ وإنْ عزمتَ فحربُك حربنا فلا نُهان، لسنا عبيداً .. لتكون وحيداً فاشهد يا صاحب الزمان».

عُدْت ولن أغادر هذه المَرَّة، راح يطمئنُ على صحبه ويجول معهم في الميدان: هل من عمل، بداي تشعرانِ بالظمأ، وانطلق .. بالحراسة والتأمين والتحصين وخدمة للمرابطين.. والحماسة والنشاط ينبعثانِ منه، لا يَكاد يفرغ من عملٍ حتى انصبّ على غيره . لله عزمه، أيَ انغماسٍ ف ي التكليف.

فجر تلوّن أحمرا

فجرُ الأحد الذي لا يشبهه فجر، الخامس عسر من شهر يناير للعام الميلادي ٢٠١٧ .. وهل ينسى؟ ورود تقطر صدرهُا دما، أيّ فجرٍ كان ذاك، فجرٌ كشَّرَ الطغيان فيهِ عن أضراسه الغادرة فاغتال (المشيِّمع، السميع، السنكيس) تقاسمت صدورهم الأبية اثنتي عشره رصاصه بالتّساوي، وما إن وقع مسك الدم وفاح، حتى عمّ معه الخبر، اشتعلت روح النضال في البلاد بالأحرار الغاضبين.

مصطفى في ميدانُ الفداءِ، حينما وصل الخبر (و يا لعظم الخبر) انطلَقَت على إثره الأفواجُ نحو الشّارع العام، لاحَ حتى وصل المقدمة فالمقدمة، مطعماً جنود الباطل من لظى جمراته، ما

ارتخت قبضته وانسبلت بل قاومت واستبسلت، واللئام في ذعرها وجُبنها يصبّون رصاصات «الشوزن» كالمطر المنهمر الذي بات يملأ جسد مصطفى من قمة رأسه حتّى أخمص قدمَيه وهو بين الصفوف يعزفُ ألحان الصمود، ما رجعت قدماه للوراء، إلى أنْ اقترب وقت صلاة الظّهر فاستدار نحوها بجسمه المثخن.

تناغم

تناغَم بينَ عمله وجهاده وبينَ دُعائه سائلاً الله برجاء القبول، وما كان يعتمد على العمل وحسب بل يرتكز على الإخلاص داعيا: ربِّ تقبل جهادي في سبيلك بقبولٍ حسن، ربِّ واجعل الإخلاص فيه طريقاً للخلاص. لابدّ من الإلحاح والطَرْق المستمر، فراح يطرق وبشدة .

إلا هذه

ما كان يجلس ويستريح، حتّى لعلاج جراحة، فالغاية المنشودَة تتطلب عملاً بلا هوادة. راحة بدنه شقاء روحه، فلا يستريح إلّا إذا بلغَ التعب به غاية المجهود فهو عندما يستريح ليس كي يستريح بل ليعاود العمل.

ذاتَ مرة وهو يأخذ قسطاً من الراحة وهو رامياً بجسده إلى الأرض ناداه صديقه قائلاً: أحضر لي الماء، فأجابه الشهيد و أنفاسه متقطعة من الإرهاق: أنا متعب، ولكن صديقه عرف أي وريدٍ فيه ينبض فعاجله قائلا: لا مشكلة، سنكفّ عن الدّعاء لك بالشهادة، انبهتت محاسن مصطفى مسرعاً وجلب الماء .. تفضل اشرب وسامحني تراجع عن كلامك ولا تكرره إلا هذه لا تكررها. وريد الشهادة أقرب إليه من أي وريد .

بحق غربتك

بعد صلاة المغرب، مصطفى وأصدقاؤه يتحلقون في دائرة ويتبادلون أطراف الحديث، وصل نبض الكلام لأحدهم: أيامٌ قليلةً وسأسافر لزيارة الإمام الرضا عليه السلام فهل لكم من حاجَة تريدونها من هناك؟ تقدّم مصطفى: أنا لديّ حاجة، ولكن ليس الآن، سأخبرك بها في الغدِ إن شاء الله. أطل الغد وتقابل الصديقان .. أخد مصطفى ورقةً من جيبة ووضعها في جيب صديقه: هذه حاجتي، ضعها في ضريح الإمام الرضا عليه السلام.

شغل التفكيرُ عقلَ صديقه، يبدو أنه طلبٌ مختلف عن باقي الأصدقاء. دفعه فضوله لفتح الرّسالة! وإذا بهي توسلٌ بغربة غريب طوس عليه السلام بأن يكتب الله له الشهادة (إلهي بحق غربتهِ، ارحم غربتي).

أحجار الشهادة

تصدح منارة المسجد بالأذان معلنةً ميقات المحبين، مناديةً بميعادِ المفلحين، ومصطفى في الانتظار، جالسٌ على مصلاّه متمتماً بتسبيحات العبادة، لسانهُ لايكاد يفتأ عن ذكر الشهادة، كوردٍ يترنّمُ في الربيع.

مرَّ أحد أصحابه وقد كان متختماً بإحدى الأحجار الكريمة فأومأ إليه باستحياء وبشاشة: ألن تعيرني خاتمك للصلاة؟ .. لمَ تريدها؟! أجابه بتلك البشاشة: أريد ان ألبسها وأدعو بها، هوَ حجرٌ ورد فيه فضلٌ عن أهل بيت العصمة عليهم السلام آملاً في تحقيق الإجابة، ولعلّها ترفعُ شيئاً من موانع القُرب والشّهادة. كان يرى كلّ شيءٍ من منظارٍ آخرٍ يترفّع فيه عن حدود الأرض ..

أيام الوصال

لمصطفى صديق يحلّق فوقَ رأسه، كيف لا وهو يملك هذا الصّفاء. استوقفه: أراك في هذه الفترة كثير العزلة، ماذا بك؟ الأصدقاء يفتقدونك في جلساتهم والجميع يَسأل عنك، قد لاحظ الكل ذلك، هل من أحدٍ قد أزعجك أو ضايقك في أمر؟

لاحت علامات الاستفهام على مُحيّا مصطفى: ليس الأمر كما تعتقد ويعتقدون بل على العكس، لم أر منهم إلا الخير، إلا أنني في هذه الفترة أحبّ الجلوسَ لوَحدي، أخشى أن أوذيهم بكلمة أو أن أجرح خواطرهم، وهذا مالا أتحمله في هذه الأيّام، لا عليك ليس بي شيء . إن كان الأمر كما تقول فلك ما تريد.

إنهم لا يدرون يامصطفى أيّ وصالٍ قد تعلقتَ به حتى أخذكَ عن كل وصال، وأي رحمةٍ يريد لك اللهً أن تتهيأ لاستقبالها .. إنها الرحمة الكبرى والفوز العظيم.

حروف الوصية

قام مصطفى متوجهاً للغسل المستحب الذي يداوم عليه (إنَّ الله يُحبّ التّوابينَ ويُحب المُتطهّرين) فالطهارة المعنوية مقدمة مهمة تسبق عروج الروح وهيامها نحو بارئها، فالسَّفر إلى هناك له آدابه الخاصة.

إنها غَسْلَة، إلا أن لاينتهي إلا بالمضيّ في التحليق نحو الكمال، متحرراً مما يعيق الروح عن الارتقاء.

يتحرّر من كلّ الأغلال ويؤمِّن الأمانات الثقال، أغلال حقوق الناس والتبعات التي لا تفكُ إلا برضاهم، وأثقال الأمانة.. أمانة راية المسير؛ راية الفداء التي لابد أن يسلّمها لمن هو كُفؤ بها، إذ لا يصلح أنْ تبقى بدون حاملٍ ومؤتمن، لذا .. عليَّ أن أكتب الوصية.

هرع نحو حقيبته وأخرجَ قلماً وورقة، كان لوحده، في لحظه صفاءٍ حلّقَت به إلى وسط الفردوس بين الأنهار والأشجار، بدأ يكتب بمدادٍ روحه والصحيفةُ مرآة ضميره، فكتب الوصية الأولى .. «صديقي وأخي مهدي لا تحزن على فَراقنا عن بعض ، وإن كان لك نصيبٌ فسيأتي اليوم الذي نكون فيه معاً، فلا تستعجل الشهادة» .

«أوصيك أخي أن تبرّ بأمي وأن تزورها وتتفقَّد احتياجاتها، فقد كنت أثناء المرابطة أكتفي بزيارتها، والأمر الأهم ألّا تُسْلموا الفقيه للظالم.

أطلُبُ من الشّباب أنْ يسامحوني، ويبروا ذمّتي إنْ كنت قد آذيتهم أوضايقتهم في أمر. نصركم الله على الظالمين.....».

طواها على بعضها وكتب على ظهرها (إلى صديقي مهدي والشباب).

ثم أخذ ورقة أخرى يكتب فيها الوصية الثانية «إليكم يا أهلي، إنّي الآنَ مرفوع الرّأس تفخر بي أمي، ويفخر بي أبي، وإن شاء اللهُ نلتقي يوم القيامة بأعمالنا الصالحة. الأمر الأهم ألّا تُسْلموا الفقيهَ ولاتنحنوا للظّالم كونوا على خطِّ أهل البيت عليهم السلام في كل خطوة. ختاماً أوصيكم بأمّي وبأن لا تحزنوا فأخوكم شهيد ، مع السلامة جميعاً».

ثم طواها على بعضها وكتب على ظهرها (إلى الأهل)، إذ لم يسعفهُ عطفه بأمّه أن يكتبها لها وباسمها حناناً بها ورأفه.

سلّمها صديقه: لا تفتحهم الآن، سيأتي يوم فتحهم. يقول : إنّي الآن مرفوع الرأس، أمِن شكٍّ بأنه بروحٍ لمن تكن تحلّق بيننا؟! كتبها ونال المنال.

يقين ماسيّ

الرّباط المقدس يدخل شهره السابع، هذه الليلة مصطفى ذاك الحارسُ الحامي يستطلع وضع الميدان في تلك الليلة الباردة، ارتدى معطفاً وراحَ ينهمكُ في تحصين طرقات وأزقّة الميدان مراقباً لأيّ خطرٍ محدق. كان الوضع هادئا، لاصوتَ إلّا صوت خطواته الخفيفة

هـوَ وبعـض المرافقـين يجولـونَ الطـرق المحيطـة، أخذتـه قدمـاه إلى مجلـس بعـض أصحابـه المرابطـين، طأطـأ رأسـه عنـد بابهـم: أعتقـد أني قـد أطلـتُ عليهـم الخلـوة، دخـل مصافحـاً ودار الحديـث: دخلنـا الليلـة شـهرنا السـابع، والمـدة قـد طالـت، والطغيـان قـد بلـغ أوج شراسـته، بالأمـس أُعـدِم الشـباب، مـاذا يضمـرون للمسـتقبل؟ ومـا يحيكـون الميـدان؟ التوقعـات المقبلـة ؟

راح الـكل يـدلي برأيـه وتحليلـه وعينـا مصطفـى تـدوران مـع المتحدثـين، خـشيَ عليهـم الوهـن وفتـورَ العـزم، فهـو يعلـم مـا في الإمهـال وطـول المـدة مـن جرثومـةٍ تـضرب الكيـان، وقـد تزَلـزِل اليَقـين مِـن محلّـه وهـذا مـالا يرضـاه .

وصلـت حلقـة الـكلام إليـه، فغـدا يشـحذ الهمـم بلسـانه الطـريّ الوقّـاد المشـتعل حارقًـا أعـواد القلـق قبـل أن تضـعَ أعشـاشَ وساوِسـها: «ويـن بيوّصـل النظـام؟ إحنـا ويانـا اللـه، إلى بسـوونه خـلّ يسـوونه» رَبـتَ عـلى أكتافهـم: «آخـر شي بننتـصر» .. مـضى مصطحبـاً صديقـه مهـدي معـه.

أيُ يقـينٍ هـذا، يقـينٌ لا شـبيه لـه مـن حـولي، لا يشـبهه شيءٌ مـن المـادة التـي نعرِفهـا، وإن كانَ ولابـد لنقـلَ يشـبه المـاسَ صلابـةً وبريقـا.

وامتطى خيل السحر

اسـتمر في مناوبـة الحراسـة والحمايـة، عينـاه حمراوتـان .. تحتهـما سـوادٌ داكـن إثـر السـهر والتعـب، باتـت كأنهـا شـمس غـروب لامسـت مـوج بحـر معتـم، هـي واللـه زينـة سـيماء المجاهديـن والمرابطـين في ثغـور الإسـلام ومـا أسـماها مـن سـمات، دارَ وجـال حتـى دقّـت في قلبـه سـاعة المشـتاقين المستوحشـين، إنـه منتصـف الليـل الذي عشـق سَـحَرَه وسِـحْرَه .

نـادى صديقـه: هيّـا، فقـد حـان وقـت الصـلاة (اللّهـم أذقنـي حـلاوة محبتـك). وكُثرٌ هـم شـبابِ المرابطـة الذيـن يُصلّـون صلاة الليـل في فنـاء الميـدان، وبمـا أن العيـونَ السـاهرة المتهجـدة تحـرس الميـدان فالقمـر

يؤثـر العتمـة والخلـوة في صلاتـهِ. مـضى مبتعـداً عـن الأعـين فلَـهُ مـع ربـه حديـث.

يحث الخطى نحـو محـرابٍ اختـاره لنفسـه .. لا يبعـد أكـثر مـن دقيقتـين مـن حيـثُ المسـير، يتمتـّم في مسـيره ببعـض أبيـات العـزاءِ مواسـاةً لأهـل البيـت عليهـم السـلام، في هـذه الليلـة حتّـى صاحبـه الـذي يشـاركه المحـراب أراد أن لايكـونَ معـه: أخـي، دعنـي لوحـدي الليلـة.

اتخـذ مـن زاويتـه محرابـاً وفـرش مُصـلّاه الـذي هـو خيـل ليلـه للسـفر نحـو المحبـوب: إلَهـي هـب لي كـمال الانقطـاع إليـك.

يـا لبراعـة الفـارس فقـد أتقـنَ التحليـق في تلـك الليلـة، مـضى سـاجداً راكعـاً يترنـم بالمناجـاة والابتهـال لنيـل الوصـال، الوصـال الـذي لا عـودة فيـه، ركعـاتٌ وركعـات حتـى انهـى شَـفْعَه وقـام لوتـره، قنـت واسترسـل في الدعـاء، قلـبٌ يتـوق إلى السـماء، كلـماتٌ يتمتمهـا لا يعلمهـا إلا اللـه، و يـا لطهـر قلبـه ، حتـماً لم ينـس مـا آمـنَ بـه عمـلاً وسـعياً وجهـادا .

فهـو جنـدي الانتظـار، وحـارس الثـورة، والابـن البـار، والداعـي بالنـصر للمجاهديـن في كل الميادين: اللهـم عجـلِ لوليـك الفـرج ..اللّهـم قتـلاً في سـبيلك مـع وليـك فاكتـب لنـا، أسـألكَ اللهـم بـأنِ أكـون جنديـك الصـادق بالعهـد، المنتظـر بالتمهيـد، فاظهـر فـداك كلّي .

(اللهـم اجعـل شـيخنا في درعـك الحصينـة التـي تجعـل فيهـا مـن تريـد). أنـا حارسـك الـذي مـا بـرح عـن أعتـاب دارك، فهـل يـبرح لسـاني مـن الدعـاء إليـك؟

(اللّهـم جازهـم بالإحسـان إحسـانا، اللّهـم صبّر قلـب أمـي). فأنـا المسرف في التقصـير بحقهـا، وهـل جزاءُ الإحسـان إلا الإحسـان؟ !

(اللهـم حصـن ثغـور المسـلمين بعزتـك ، وأيّـد حماتهـا بقوتـك). فروحـي تحـوم في كل ميادين الجهـاد في أيّ بـلاد، اشركنـي اللّهـم في جهادهـم.

مـضى يدعـو ويدعـو والشـوقُ قـد اسـتعر بلهيـبُ الحنـين، حتـى ذاب في اللـه كُلـه، وسـالت دموعـه تترقـرق عـلى كفيـه المبسـوطتين نحـو السـماء، تلـك لحظـةٌ مـا كانـت لتغيـبَ عنـي، رفـع صوتـه الشـفاف (رب افتـح لي الوصـول إليـك). طريـقَ مَـن خضـب بدمـه في سـبيل اللـه، ففـرغَ

من صلاته وقام لمضجعه، فهَلْ تمّت البشارة ولاحت الإشارة؟ حاله في تلك الليلة يوحي بذلك، ولا غَرابة .. فالقمر يعرفُ ليلة تمامه.

خليل الفداء

هيا لنعد إلى الميدان... نطق أزيز الرصاص قبلَ صديقه مُمَزقاً هدوء تلك الليلة، اضطرب الفؤاد خوفا، خوف المواجهة؟ خوف التخلف وعدم ردّ عساكر الجور عن حصون المؤمنين.

مضى يهرول بكل ما فيه من عزم وقوة، قاصداً قلب الميدان، المسافة ليست ببعيدة، قصيرة .. إلا أنّ الطريق بات عليه طويلاً رغم قصره، حطت قدماه في الزحام، نظر إلى اللئام نظرة استصغار فردّ بصره واستدار، ذهب لمركزه ومحوره، هناك منزل الشيخ ، يمم وجهه قبال المنزل (خذ مني صدق الفداء، فنجوم السماء أقرب لهم مِن الوصول إليك مادامَ فينا رمق، أقولُ كما علّمتنا وقلت: لسنا ممن يخاف الوعد والوعيد ولسنا ممن ينشر الرعب في الأرض والرعب إذا انتشر لا يزلزل أقدامنا).

توجّه لتحالف الشر مبارزا ، عساكرٌ من الظلام .. (ليلٌ دامس وجندُ لئام)، عمالقة الغدر (قوةٌ من نُخَب قواتهم) ، عادوا وكما اعتادوا على غدر الفجر، جاؤوا ونواياهم الفتك، لم تحمل أياديهم المذعورة غير الرصاص، الرصاص فقط ، الرصاص الحيّ والانشطاري، ولهم من الشيطان حيلة، فقد لبسوا اللباس المدني واختلطوا بالمرابطين، فحدثت الاشتباك ومصطفى بين ذلك الزحام، أقامَ في صدرة عقد قران عزمه واستبساله .

يصول بخطىً مطمئنة، تارةً تراه في الشمال وتارةً أخرى في الشرق وهو بين الصفوف يرتجز وأرجوزته التكبير، يبثُ الحماسة في صحبه ويمينه (بارك الله يمينه) ، تذُودُ عن الحياض، و اللئام يشحذون أسلحتهم حقداً ولؤما، تُغِيرْ بوابل مِن الرصاص على كل من يفكر بالاقتراب.

رأى صحبه كيف يمضي ويزمجر، ويرميَ ويكبّر، مستلماً زمام الريادة للذود عن القيادة، فساروا خلف ضوءه القمري، حتى عادت الأمور إلى نصابها واستدار رحى النزال. (مقاوم، فتح الفدائيين في حصن ابن قاسم) .

هناك في حومة الميدان يصنع الرجال التاريخ.

ومضى يخوض الغمار إلى أن تمكن من الوصول إلى مركباتهم، اقتحم الموت، فتح الباب وأتلف واقتحمَ وطارَد، استدار قاصدا محوره وأدراجه، فقد عميت عين اللئام ببريق شجاعته، حتى صوّبَت رصاصة مشؤومةً نحو رأسه قاصدةً إركاعه، أصابت مقدمة رأسه وكسرت عظام جمجمته وانحنت نحو دماغه. .. لله درك انحنت الرصاصة وما انحنيت .

هنا تكلم الدّم وهل يوجد أفصحُ وأبلغ من الدم خطابا؟ تناثرت حروف الوصية قبل ميعادها وقبل أن يفتحها صاحبة (أوصيكم بأمي) هذا ما قالته الدماء حينما انبثقت. (كونوا على خط أهل البيت عليهم السلام في كل خطوة) هذا صوتها حينما بالأرض قد ارتطمت (الأمر الأهم أن لا تسلموا الفقيه ولا تنحنوا للظالم) وهذا شكلها حينما ارتسمت.

من سيحمل مصطفى الآن، ومن سيحمل الرّاية؟ فدماؤه الزكية أمانة ثقيلة. هنا وصل إليه أخوه الشهيد محمد حمدان، احتضنه ثم حمله، وما أخف جسمه النحيل وأثقل الراية.

طاف به طرقات الميدان في وداعٍ أخير، دماءُ مصطفى بشذاه يغيّر مجرى الميدانِ النزال.

يتبع الدماء تفلحُ الخير كل الخير في سوح الوغى ، اقتحم الموت بالموت تنجون منه ، عمروا ثباتكم .

اللئام أحست من ذو ذاك بأن الزحف بدأ يطوقهم بل ويلتهمهم ، بعد أن وصل الشهيد لمركباتهم (وسيلة فرارهم الجبان) ، فلاذوا لبعضهم وقلوبهم شتى يطلبون الملجأ والمهرب ، وغطوا آمال خيبتهم بتمطير الأفق رصاصاً إلى أن ركبوا سياراتهم وولوا مدبرين قد أخفقت سراياهم وخابت مساعيهم .

ولقد عرفوه

وصل به إلى المستشفى وأُلقي هناك يسبحُ في دمه دون علاج تشفّياً وبغضا، دارت الساعات تلو الساعات وهو على تلك الحالة إلى أن أُدخل غرفة الإنعاش.

لقد عرفوه جيداً هذه المرة، فارتعدوا وارتعبوا، فرضوا على غرفته حصاراً مطبقا، وطوقاً مشددا، منعوا عنه الجميع عدا والدته.

لمَ كل هذا الذّعر؟ ومم ارتعابهم منه وقد أُتلفت الرصاصة خلايا دماغه وأدخلته في غيبوبة. ممددٌ على سريره الأبيض، لايصدر منه سوى نبضٌ خافت، إلّا أنّه مفعمٌ بالهيبة، ومتشعشعٌ بالسكينة.

أجواء الغرفة تتسم بالهدوء والصمت، يتخللها صوتٌ حزين يرتل القرآن عند رأسه، إنّها الأم الحنون.

درات رحى الأيام، إلى أن انتكست حالته الصحية أكثر، والأم تراقب الوضع عن كثب وتنظر إلى وجهه الأنور وقد ازداد اصفرارا، تناغيه وتمسح على رأسه: قم يا قمري وقلها مجدداً (أماه أحبك بعمق البحر ،أماه أحبك بعمق لسماء).

أحضرَت مَعها مِن عبقِ الطّف تربه، تنثره على صدرة ورأسه، ولاتعلمُ أن مسك كربلاءَ تُضاعِفُ حَنينه نحو الحسين عليه السلام وصحبه.

أسرار الكمال

في يوم الجمعة، تحديدًا وقت صلاة الجمعة ..أفضل الأوقات وأكثرها بركة، يرسم القدَر أروع صوره لمصطَفى، فتحت السماء أبوابها وكأنّه العباس عليه السلام قد مدّ كفّه مصافحاً حمدان .. ثم حلّق.

(انزعـوا هـذه الأسـلاك مـن جسـدي، فُكـوا حصاركـم، لا تحاولـوا عبثـاً منـع التحليـق). رفـرفَ يكـسر الحصـار بشـهادة عزيـزة نحـو الخلـود السرمـدي للفـردوس مـع محمـدٍ وآل محمـد. بهـذا اليُسر وكأنها ليسـت سـوى وثبـة!

عشـقَ الكـمال وأسراره ومراتبـه فـراحَ ينقّـبُ في منجمـه، يـا لبراعـة عقلـه، وبـأس روحـه، هـؤلاء هُـم عباقـرة الدهـر . يقـول السـيد القائـد: «الشـهادة هـي مـوت الأذكيـاء الفطنـين الذيـن لا يفقـدون هـذه الـروح بـدون ثمـن».

حفل التخرج

أُعلِـنَ وقـت التشـييع، وهـبّ الأحـرار يهرعـون مـن كل حـدب وصـوب، لم يكـن مراسـم تشـيْيع بقـدْر مـا كان حفـل تخـرّج لمصطفـى .. فخـر الميدان وعـزه، ....الخريـج الأول للربـاط المقـدس. مجاهـدٌ برتبـة شـهيد، فاتحـاً بالفـداء عهـداً جديـدا .

ومـا إن لاحـت الجنـازة حتـى اشرأبـت إليهـا الأيـدي لهفـة، كلٌ يريـد التـزود في الـوداع الأخـير، ماجـت عاليـة فـوق الـرؤوس إلى أن حطـت فـوق المركبـة التـي تقدمـت الموكـب. انطلقـت الجمـوع تجـوب الشـوارع كسـيل عـارم والحناجـر تصـدح ملتهبـة متوعـدة الجنـاة أنْ لا مفـر.

فرحين بما آتاهم الله من فضله

وصـل الموكـب إلى أمـام منـزل الشـهيد وتوقـف، لوّحـت الأم الحنـون مودعـة بيمينهـا، تبسـمت ومضـت تمطـر النعـش الطاهـر بالـورد والسـكاكر رضـاً وسرورا. أوليـس الشـهداء (فَرِحِـينَ بِمَـا آتَاهُـمُ اللَّـهُ مِـن فَضْلِـه) فلـم الحـزن.

وصـدى وصايـا الشـيخ مِـن قديـم التأريـخ قـد طـرق مسـامعها (ليـس عـلى القيـادة وحدهـا أن تصـبر أمـام عِظـم التضحيـات، بـل عـلى الأمـة ألّا يكـثر عويلهـا عنـد التضحية).

فنادت: مَضى على خطّ الدّفاع والذودِ عن حياض الإسلام، ولي أبناءٌ على نفس الخط .. فداءً لديننا وعزتنا .

وصل إلى المقبرة، أُنزلَ الشهيد في روضته، وغاب جسده في التراب يحفر في صدر التاريخ ملحمة الإباء والشهامة.

كفّ عهد (يستبشرون)

تزودت منهُ الجموع إلى حين مَغيب الشمَّس، فانصرفَت النّاس ولكن كأني بخمس رجالٍ كأنهم لؤلؤٌ مكنون قد التفوا حول روضته، على وجوههم سيماء المجاهدين. استبشر بقدومهم، لكن من هؤلاء ؟

إنهم (القاهرون) وهو سابقهم. قُهّار الموت والمستحيل، الباذلين المهج على خط الإسلام الأصيل.

هم (محمد زين الدِّين، محمد السّاري، أحمد العصفور، محمد العكري، وأخوه محمد حمدان). ولكل واحدٍ منهم نبأٌ عظيم سترويه الأيام .

بصموا عند قبره بالوفاء في ساحة الفداء، وانصرفوا، بروزا إلى المصارع والميقات المعلوم (بسم الله الرحمن الرحيم)

فتعالوا نحيط معهمِ بالروضة المباركة
ولنقرأ العهدَ والفاتحة.